

# الديالكتيك

بقلم فارس سواع

لان الاستقرار موت ، والتغير صراع بين الازداد ليحل بعضها محل بعض والشقاق ابو الاشياء وملكها جميعا . فنحن ننزل في النهر ولا ننزل ، نحن موجودون وغير موجودين من حيث أن الفناء يدب فينا في كل لحظة، فكل شيء كذا وليس كذا ، موجود وغير موجود . هذه الاثباتات المتناقضة سيعاودها الجدل الحديث .

## زينون الايلي :

زينون تلميذ برمنديس ، يعتبر بحق رائد الطريقة الجدلية ، وقد وضع جهده في محاولة تأييد استاذه ضد الذين سخروا منه ، وكان يعتمد في اقامة براهينه على التناقض بصورة جوهرية .

تتلخص أفكار استاذه بان الوجود واحد قديم ثابت كامل ، وعليه فقد أنكر التغير والكثرة والتعدد التي قال بها هرقليطس والفيثاغوريون الذين فسروا العالم والوجود بالاعداد ، كما أنكر الحركة . وقد وردت أمثلة طريفة على جدل زينون في محاورات افلاطون ، فهو في معارضته مبدأ الحركة والتغير يورد حججا أربعة . منها : **حجة القسم الثنائية** ، وهي مأخوذة من فرض المقدار مركبا من اجزاء لا متناهية ، تقول الحجة أن الجسم المتحرك لن يبلغ غايته الا بعد ان يقطع نصف المسافة اليها ، ثم النصف الاخر . . وهكذا الى ما لا نهاية ، ولما كان اجتياز اللانهاية ممتنعا كانت الحركة ممتنعة .

وهناك حجة ثانية وهي تمثيل للاولى وتسمى «حجة أخيل» وموداها أننا اذا فرضنا «أخيل» ذا القدمين الخفيفتين يسابق سلاحفاة وهي ابطا الحيوانات وأن هذه السلاحفاة متقدمة عليه مسافة قصيرة ، وانهمنا بيدان الحركة في وقت واحد ، فان أخيل لن يدرك السلاحفاة حتى يقطع المسافة الاولى الفاصلة بينهما ثم المسافة الثانية . . وهكذا الى ما لا نهاية .

والحجة الثالثة هي : **حجة الملعب** ، وتقوم على فرض الزمان مؤلف من آتات غير متجزئة والمكان من نقط غير منقسمة .

لنفرض وجود ملعب مربع الشكل ، ولنفرض وجود ثلاث مجاميع كل منها مؤلف من أربع وحدات أو نقط والثلاثة متوازية في الملعب . المجموعة الاولى تشغل . . . . نصف الملعب اليميني ، والثانية بعدها تشغل نصفه اليسار . . . . والثالثة تحتلها في الوسط تماما . . . .

لنفرض الان أن الاولى والثانية تتحركان بسرعة واحدة كل منهما باتجاه الاخرى بينما الثالثة ساكنة لا تتحرك ، ان الواحدة منهما تقطع طول الاخرى في زمن هو نصف الزمن الذي تقضيه لقطع طول المجموعة الساكنة . أي أن الانتقال من احدى نقط المجموع الساكن الى النقطة التي تليها يتم في آن هو ضعف الآن الذي يتم فيه الانتقال من احدى نقط المجموع المتحرك الى النقطة التي تليها ، فتقطع الحركة نفس المسافة في زمن معين وفي ضعف هذا الزمن ، فيكون نصف الزمن مساويا لضعفه ، وهذا خلف ، اذن الحركة وهم .

الديالكتيك . . كلمة يحيط بها الغموض في الغالب ، بسبب التحول الذي طرأ على معناها عبر العصور ، واختلافه من فلسفة الى أخرى .

وقد حاولنا في هذا البحث الصغير ، اعطاء شرح مبسط قدر الامكان لازالة ذلك الغموض . انه بالمستطاع اعطاء شرح مطول او مبسط للديالكتيك ، ولكنه من المتعذر دوما اعطاء تعريف محدد شامل للكلمة .

تأتي كلمة ديالكتيك «جدل» مباشرة من الكلمة اليونانية «دياليجين» أي يجادل ، فهي تعبر عن الصراع بين الافكار المتضادة .

ما هو الجدل ؟ الجدل هو منهج . . ما هو المنهج ؟ المنهج هو الطريق التي توصلنا الى هدف ما ، وهو افضل طريقة عقلية توصل الى الحقيقة . ولا بد لكل فلسفة من منهج ، وعليه يكون بالامكان التفريق بين المناهج الجدلية ، والمناهج غير الجدلية ، ولتأخذ كمثال «سقراط» ومنهجه الجدلي لنستنبط بعض المعلومات الاولية بدلا من أن يعرض سقراط فكرة في أبحاث طويلة ، كان له طريقة جديدة تتألف من مرحلتين :

١ - التهكم

٢ - والتوليد

ففي الاولى كان يتصنع الجهل ويتظاهر بالتسليم بأقوال محدثيه ، ثم ينتقل من أقوالهم الى أقوال لازمة منها ولكنهم لا يسلمون بها ، فيوقعهم بالتناقض ويظهر جهلهم ثم ينتقل الى المرحلة الثانية فيساعد محدثيه بالأسئلة والاعتراضات مرتبة ترتيبا منطقيا ، على الوصول السني للحقيقة ، فيصلون اليها وهم لا يشعرون ، بل يحسبون أنهم اكتشفوها بانفسهم .

الجدل اذن كما نستطيع ان نلاحظ ، هو فن المحاوراة والمناقشة وفن الارتفاع العام بالابتداء من الوقائع المشخصة ، والتحقق منها باللجوء الى وقائع أخرى ، هو فن البرهان ودحض كلام الخصم . فالمجادل ينظم معرفته ويصحبها في نظام متماسك ، انه يخلق أساسا منطقيا لارائه ويشكل «التناقض» المبدأ الأساسي الذي تقوم عليه البراهين بالخلف في الجدل .

ان دحض حجج الخصم يعني اظهار أن نظريته تناقض الوقائع البديهية ، أو نظرية سابقة من نظرياته ، وبما أن القضايا المتناقضة لا يمكن أن تكون صحيحة في وقت واحد فان الخصم يضطر للاعتراف بخطاه .

## معالم الجدل القديم

هرقليطس : ٥٤٠ - ٤٧٥ قبل الميلاد

ان دراسة هرقليطس لا تفيد في توضيح معالم الجدل القديم بقدر ما تعيننا على فهم الجدل الحديث وخاصة عند هيجل ، فقد اعتبر في بعض الاحيان الاب الشرعي للجدل الهيجلي الحديث . «الاشياء في تغير مستمر» هذا هو قوله الاكبر وملخص مذهبه : انك لا تنزل النهر الواحد مرتين ، لأنك لن تجد نفس قطرات الماء متجمعة ، وهناك باستمرار مياه جديدة حولك ، ولولا التغير لم يكن شيء ،

لقد كان جدل القدماء خاضعا تماما لمبدأ التناقض، بل ان الامر ابعد من ذلك فبسبب وجوده هو منع الاحكام من ان تؤدي الى نتائج متناقضة ومن ثمة الى نتائج لا يمكن التوفيق بينها .

ان شيئا من الاشياء لا يمكنه ان يوجد والا يوجد في وقت واحد، بل ان الفكر حينما يثبت بالتالي قضيتين متناقضتين فيما بينهما فان واحدة منهما خاطئة ولا شك . وكان لا بد من انتظار هيجل ليصوغ بصورة ظاهرة امكانية التوفيق بين المتناقضات فالاشياء موجودة وغير موجودة في وقت واحد انه يجعل من هذا التناقض النابض الاساسي لنشاط الموجودات ، لقد كان الجدل حتى هذا الوقت اما فن البرهان واما فن دحض البرهان ، اللذين يتضمنان معا عدم امكانية التوفيق بين الاضداد ، اما هيجل فقد جعل منه ما تدوب فيه الاضداد .

لنلخص الآن قواعد المنطق التقليدي الذي يعتمد عليه الجدل القديم بصورة مطلقة :

١ - مبدأ الذاتية : الشيء هو نفسه . فالنبات هو النبات والحيوان هو الحيوان ، وباختصار آ . . هي . . آ . .

٢ - مبدأ عدم التناقض : لا يمكن لشيء ان يكون هو نفسه وعكس نفسه في نفس الوقت فالنبات ليس هو الحيوان . والحيوان ليس هو النبات ، والحياة ليست هي الموت ، والموت ليس هو الحياة ، وبالاختصار آ ليست الا آ .

٣ - مبدأ الثالث المرفوع : او : استبعاد الحالة الثالثة . ليس هناك وجود لامكان ثالث بين امكانين متناقضين ، فالكائن اما حيوان او نبات وليس هناك مكان ثالث ، فاذا كانت آ . . ولا آ . . متناقضين فان أي شيء من الاشياء يكون اما آ . . او لا آ . . هذه باختصار قواعد المنطق التقليدي . لكن الجدل الهيجلي حطم هذا المنطق .

كان هيجل يريد ان يتقبل الاطراف المتناقضة فيجمعها في وحدة شاملة وعنده ان الاساس الاول للوصول الى الحقيقة هو الاعتراف باتحاد الاضداد وانسجامها زاعما ان كل اثبات يتضمن نفيا ، وكل نفي يتضمن اثباتا . ذلك هو قلب فلسفة هيجل وصميمها ، وهو يطبق قانونه هذا على كل موضوع بغير استثناء . فقانون التناقض الذي يقول به المنطق الصوري القديم يجب ان يزول من اجل حقيقة هيجل العليا التي نسجم فيها المتناقضات ، والتي تذهب الى ان كل شيء يكون موجودا وغير موجود . فلا حقيقة الا لمجموعة الاشياء متحدة في كل ، ولا بد لكل جزء من الاتصال بذلك الكل لكي يكتسب صحته لان الشيء اذا اعتزل وانفرد ضاعت حقيقته . وكل شيء مرحلة ، مرحلة زائلة فانية توصل الى غيره .

ان مبدأ الذاتية القديم هو تحديد ما هو بسيط مباشر في الوجود . في حين ان التناقض هو جذر الحركة كلها ، ان التناقض الذي يحمله هذا الشيء في ذاته هو وحده الذي يجعله يتحرك وينشط . ان التوفيق بين الاضداد سواء في مجال الاشياء او في مجال الفكر يؤلف ما يدعوه هيجل بالجدل .

ان النهج الذي يهجه الجدل يتضمن ثلاث مراحل :

١ - الاطروحة - ٢ - الطباق - ٣ - التركيب . وهذا ما يدعوه هيجل عادة : الاثبات والنفي ونفي النفي .

ان الثالث الاول في مذهب هيجل هو اشهرها : الوجود موجود . وهذا هو الاثبات او الاطروحة . بيد ان الوجود غير المحدد بصفة كلية والذي ليس هذا او ذلك يعادل

لقد جاءت حجج زينون لهما جديا ، ولكنها كسانت امرا جديدا في الفلسفة ، فانه لم يستعمل الجدل عرضا ، وانما قصد اليه قصدا ووضعه في صيغة فنية ، ولكنسه كان جدلا سالبا يذهب من **مقدمات ثابتة** ولكن من مقدمات تقبلها الخصم ، انه جدل يذهب الى تبيان عيوب الخصم ومغالطاته .

ثم جاء السفسطائيون ، الذين جعلوا همهم التشكيك والتلاعب بعقول العامة ، فليس هناك حقيقة مطلقة ، لان الانسان مقياس لجميع الاشياء .

ان ما تراه حقا ، هو حق بالنسبة لك ، وما اراه حقا هو حق بالنسبة لي ، وانا انسان وانت انسان . وهكذا فقد كان الجدل بالنسبة اليهم اسلوبا للمغالطة والتضليل . وعندما جاء سقراط ، كان همسه الاول محاربة السفسطائيين بنفس اسلوبهم ، لقد كانت براعته في الجدل لا تحده ، كان يجعل خصومه يسامون بأمور مناقضة لما اثبتوه في بادىء الامر ، ويتركهم في حالة عجز تام . اما افلاطون فقد كان جدله هو الجدل السقراطي قبل كل شيء ، ولم يكن الجدل لديه موجبا فقط كما كان عند سقراط بل انه جدل دينامي يتضمن حركة في الفكر وتحفزا للفتح وتجاوزا للمعنى الاول .

حدد افلاطون الجدل بانه المنهج الذي يرتفع به العقل من المحسوس الى المعقول دون ان يستخدم شيئا حسيما ، بل بالانتقال من معان الى معان بواسطة معان ، وبانه العلم الكلي بالمبادئ الاولى والامور الدائمة ، يصل اليه العقل بعد العلوم الجزئية ، ثم ينزل منه الى هذه العلوم يربطها بمبادئها ، والى المحسوسات يفسرها . فالجدل علم ومنهج يجتاز جميع مراتب الوجود من اسفل الى اعلى وبالعكس . واذا كان افلاطون قد رفع الجدل الى مقام العلم والمنهج العلمي فان « ارسطو » قد عاد به الى معناه المتعارف عليه فحدده :

« بانه الاستدلال بالايجاب او السلب في مسألة واحدة بالذات مع تحاشي الوقوع في التناقض ، والدفاع عن النتيجة الموجبة او السالبة » . ان المجادل عنده ليس معنيا بمناقشة مقدمات المحاكمة التي يتفحصها ، بل ان وظيفته تتحدد في ملاحظة فيما اذا كانت النتائج مستنتجة بصورة مشروعة . فالمقدمات غالبا ما تكون محتملة ، وليس من شأن المجادل ان يبدي رأيه بصحة النتائج التي هي ذات علاقة بصحة المقدمات .

### « معالم الجدل الحديث »

كان معنى الجدل يتوحد احيانا بالمنطق عند بعض الفلاسفة القدماء ، ويفترق عنه عند البعض الاخر ، وفي بداية العصور الحديثة مالت كلمة « جدل » الى الاختفاء وحلت محلها كلمة « منطق » غير ان الفيلسوف الالماني « كانت » عاد فأحيا الكلمة بمعنى جديد بعض الجودة . وقبل « كانت » كان « ديكرت » يخالط بين المنطق والجدل وكان يشعر بعدم انسجام واضح ازاء رجال الجدل ، يقول في هذا المجال : « ان الامر فيما يتعلق بالجدل شبيه بامر البلاغة والشعر ، وفنون اخرى ، كالبارزة ، ان المرء يخسر في تعلمها اكثر مما يربح » .

### هيجل :

الا ان واجب صياغة المنهج الجدلي لأول مرة بطريقة عبقرية كان يقع على عاتق الفيلسوف الالماني « هيجل » وقد قيض لكلمة جدل ان تقترن دائما باسم ذلك الفيلسوف لانه حدد لها ميلادا جديدا يبدو معاكسا لجدل القدماء

العدم . بحيث ان الائنات او الاطروحة تؤدي الى النفي او الطباق . ليس الوجود موجودا . ان هذا النفي سوف ينفي ايضا فيكون التركيب في القضية : ان الوجود هو الصيرورة .

وهكذا فالتركيب اذ يرفع التناقض يظل محتفظا بالقضيتين المتقابلتين ، وهو يدل على توقف التفكير في الفكر او الحركة في الاشياء ولكنه ليس توقفا نهائيا . انه يستثير بدوره النفي الخاص به . ذلك النفي الذي لا بد لتركيب جديد من ان يرفعه وهكذا بدون تحديد .

### ماركس :

كان انجب تلامذة هيغل ، ولكن هذا التلميذ النجيب سوف يشرع فيما بعد وفقا لمنهج هيغل في نقد هيغل نفسه . وفي نقد كل ما يمثله هيغل في الثقافة الالمانية وفي الفكر العام .

استطاع ماركس ان يرى في الجدول المنهج العالمي الوحيد ولكنه استطاع ايضا كـمـاـدي ان يضعه وضعه الصحيح ، فنبت المفهوم المثالي للعالم ، أي المفهوم الذي يقول ان الوجود المادي نتاج للفكرة ، كما فهم ان قوانين الجدول هي قوانين العالم المادي وانه اذا كان الفكر جدليا فذلك لان البشر ليسوا غريبين عن هذا العالم ، بل هم جزء منه لقد نبذ القشرة المثالية لمذهب هيغل ليحتفظ بالنواة العقلية أي الجدول . وقد قال هو نفسه ذلك في التصدير الثاني بكتاب رأس المال : ان منهجي الجدلي لا يختلف في اساسه عن منهج هيغل فحسب بل هو تقيضه تماما فحركة الفكر الواقع وليس هذا الواقع الا الصورة الظاهرية للفكرة . اما عندي فحركة الفكر ليست الا انعكاسا للحركة الواقعية منقولة ومحوالة الى المخ البشري .

ساعد ماركس في ذلك انطلاق العلوم الطبيعية في نهاية القرن الثامن عشر وفي اوائل القرن التاسع عشر . وسنرى ماركس وصديقه انجلز يتبعان طوال حياتهما تقدم العلوم .

فكان المنهج الجدلي يتحدد في دقة بقدر ما تعمق معرفة العالم . وخلال هذه الحركة ، كان لا بد للماركسية من ان تكسب علماء عديدين جدا من كل الاتجاهات .

وقد قام ماركس وانجلز بمحاولة اثبات خصوبة المنهج الجدلي ، اذ قاما بتأسيس علم المجتمعات ، ونظريته العامة هي المادية التاريخية ، وذلك بتطبيق « المادية الجدلية » على التاريخ البشري ، فالتاريخ بأكمله ليس الا تاريخ الصراع الطبقي ، وان هذه الطبقات الاجتماعية تتصارع نتيجة العلاقات الاقتصادية السائدة في العصر .

والان ما هي مبادئ الجدول الماركسي ؟ :

١ - المبدأ الاول : كل الاشياء مترابطة .

الجدول بعكس الميتافيزيقا لا يعتبر الطبيعة تجميعا عرضيا للاشياء والظواهر المنفصلة بعضها عن بعض ، بل يعتبرها شيئا واحدا مترابطا ، فلا يمكن فهم أي ظاهرة من ظواهر الطبيعة اذا نظرنا اليها منعزلة خارج الظواهر المحيطة بها وتحقق صحة هذا المبدأ على نطاق واسع في الطبيعة والمجتمع . ان النباتات والحيوانات تتعلق بالوسط الذي تعيش فيه ويطورها ، ثم لا يلبث ان يتطور تحت تأثيرها .

٢ - المبدأ الثاني : كل شيء يتحول .

فالجدول الماركسي لا يعتبر الطبيعة حالة من السكون والجمود بل يعتبرها حالة حركة وتغير وتجدد وتطور . ينبغي الا ننظر للعالم وكأنه مركب من اشياء ناجزة ،

وينطبق هذا المبدأ بصورة عامة على المجتمع والطبيعة . يقول انجلز :

الحركة هي حال وجود المادة فلا توجد مادة بلا حركة ، فهناك حركة في الفضاء الكوني ، وحركة آلية لكتل اصغر فوق كل جرم سماوي . وذبذبة جزئيات في صورة حرارة او تيار كهربائي ، وكل ذرة واحدة في الكون تشارك في لحظة بعينها في صورة او اخرى من صور الحركة .

٣ - المبدأ الثالث : التغير الكيفي .

ان الجدول لا يعتبر التطور مجرد عملية تزايد لا تؤدي فيها التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية ، بل يعتبرها تطورا ينتقل من التغيرات الكمية الكامنة التي لا دلالة لها الى تغيرات ظاهرة وجدرية ، أي الى تغيرات كيفية . والمثال الشهير الذي يضرب على ذلك هو مثال الماء حينما يوضع على النار ، ترتفع درجة حرارته من درجة لآخرى وعندما تصل الحرارة الى مائة درجة يأخذ الماء بالغليان فيتحول الى بخار ماء . اذن الصعود المتغير في الحرارة يكون تغيرا في الكم ، وتغير الماء من حالته السائلة الى حالة البخار يكون تغيرا كيفيا . وهكذا فقد ادت التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية .

وعلى صعيد المجتمع نجد ان الثورة وهي تغير كيفي هي نتاج ضروري لتطور كمي . يقول ستالين : ان البروليتاريا قامت عام ١٩٠٥ بعد ان دبت فيها الحياة والقوة فهاجمت مخازن السلاح . هذه حركة ثورية أعد لها تطور طويل من السنين السابقة عندما كانت البروليتاريا تكتفي بالاضرابات المنزلة .

٤ - المبدأ الرابع : صراع الاضداد .

التناقض شامل لانه محور كل تغير ، والتناقض الماركسي واقع موضوعي . أي انه لا يوجد في الافكار فقط بل ان وجوده في الفكر ليس الا صورة عن وجوده الموضوعي الخارجي . والتناقض يفسر كل عملية طبيعية او اجتماعية . وصراع القوى المتضادة شامل في العالم الفيزيائي . ان ظاهرة عادية مثل حدوث صدا في شوكة معدنية ليس الا نتاجا للصراع بين الحديد والأكسجين . وان حركة مثل حركة الكواكب حول الشمس لا يمكن فهمها بدون الصراع بين ضدتين هما : الجاذبية التي تنزع الى اسقاط الكواكب على الشمس والقصور الذاتي « أي قوة استمرار نفس الحركة » الذي ينزع الى ابعادها عن الشمس . وما الحياة الا صراع مستمر ضد الموت . ثم ليس تطور المجتمعات البشرية نتاجا لصراع الطبقات ؟

هذه مبادئ جدل ماركس . والان هل اعطينا فكرة واضحة عن الجدول ؟ . لا اعتقد . ولكننا اعطيناه بطاقة تعريف صغيرة قد تفي بالفرض بالنسبة لغير المتخصص ، ولكنها نقطة صغيرة وصغيرة جدا في بحر الجدول الواسع .

## فراس سواح

دمشق

### بعض مراجع البحث :

تاريخ الفلسفة اليونانية : يوسف كرم

تاريخ الفلسفة الحديثة : يوسف كرم

قصة الفلسفة الحديثة : احمد امين ، زكي نجيب محمود

### مراجع اجنبية :

أزمة الماركسية : هنري لوفيفر

الدialeكتيك : بول فولكبييه

المبادئ الاولية للفلسفة : جورج بوليتزور

تفكير ماركس : جان ايف كالفيز .